

اللسانيات المقارنة وسيميائية اللغات

أ.د./ بلشير لحسن

جامعة سيدي بلعباس

اللغة سيميائية:

في خضم الانفجار العلمي والأشواط الهائلة التي قطعتها الدراسات اللسانية المعاصرة بقيادة نخبة من المفكرين العاملين في المجالات اللسانية واللغوية والمبشرين بنحو النصوص بدل نحو الجمل وسيميائية اللغات، ظهرت اللسانيات المقارنة في القرن التاسع عشر كفرع من اللسانيات العامة وهي دراسة لغوية مكانية تكتسي أهمية بالغة وتشكل ركيزة أساسية للازدواجية اللغوية باعتبارها مجموعة من الكفاءات والقدرات اللغوية والموسوعية المزدوجة التي ينبغي أن يتوفر عليها الباحث حتى يتسنى له الانتقال بيسر وسهولة من اللغة الأصل إلى لغة الهدف، فاللسانيات تعتبر الوسيلة الفعالة والأداة النظرية الناجعة والضرورية التي ينبغي أن تلازم الباحث أينما حل وارتحل لتجعله قادرا على دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية في اللغات التي تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة مستخدما في ذلك المنهج اللساني المقارن الذي يعتبر بمثابة ترجمة انعكاسية لموضوعه السيميائيات الخاصة التي تتضمنها اللغات الطبيعية والسياقات خارج الأبعاد الثلاثية اللغوية بصفة عامة، وهذا المصطلح الجديد الذي وظفته دراسات لغوية مغربية مستوحاة من اللسانيات المعاصرة ظهر بشكل جلي على الساحة اللسانية المغاربية بحيث كان الشرارة الأولى والدعامة الأساسية في الدراسات اللسانية المعاصرة ليس من قبيل العبث الفكري إنما مصطلح مؤسس على قواعد عدة، من بينها كون الترجمة سيميائية تماما، كما هي اللغة سيميائية كونها نظام من العلامات، وكل ما هو سيميائي له سيميائية انعكاسية على حد ما اعتبره العالم الفرنسي جريماس¹.

وبما أن السيميائية تعتبر نظاما من العلامات فهو لا يلزم الدلالة، بل يفترض معرفة العلامات داخل السيميائية المفترض وجودها في شبكة العلاقات والارتباطات الدلالية، فعملية إنتاج النص وتحليله وظيفة سيميائية، إذن ينبغي اعتبار عمليتي التفكير والترميز وظيفتين سيميائيتين، وبما أن ترجمة النص هي بمثابة تفكيك وترميز فهي وظيفة سيميائية ثنائية، فالمصطلح يمكن إسقاطه على ما يعرف باللسانيات المقارنة التي تهتم بدراسة الأنظمة السيميائية في لغة من اللغات، هذه الأنظمة قد تنتج كما هائلا من المعطيات النظرية لمعرفة

الفروق بين اللغة الأصلية للمتعلم واللغة المستهدفة تعلمها، وكذلك في مجالات نظم البنى التركيبية للجمل والمفردات والنظام الصوتي.

فلا يمكن على الإطلاق الوقوف على الأبعاد الدلالية اللغوية على تنوعها إلا بتوظيف الازدواجية اللغوية التي نعتبرها قضية لسانية جوهرية تماما كعلم اللسانيات، فقد عرف المجتمع العربي حقبة حفلة بالمنتوجات الترجمية في مجالات عدة، ولم ترتسم خلالها معالم لعلم قائم بذاته، بل كانت الازدواجية اللغوية أساسا للنقل العلوم والمعارف ولم تكن أبدا ترجمة انعكاسية أو نظريات وضعت أساسا لعلم الترجمة.²

هناك قضايا لغوية ساخنة عبر تاريخنا العربي الإسلامي ومن بين هذه القضايا الازدواجية اللغوية التي عارضها أبو عثمان الجاحظ في كتابه الحيوان "ومتى وجدناه أي الترجمان تكلم بلسانين، علمنا انه ادخل الضيم عليهما، لان كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعتين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة؟ وإنما له قوة واحدة فان تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها".³

تتمثل الازدواجية اللغوية في مجموعة من الكفاءات والقدرات اللغوية التي تكتسب بواسطة اللسانيات المقارنة وتسعى إلى تكوين ثقافة ازدواجية كما وكيفا لدى الباحث أو المترجم، وبقدر ما يحدث التطور الفكري والثقافي يسهل الانتقال من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف، وتحتاج لتنمية متواصلة بواسطة الترجمة الانعكاسية المركزة على اللسانيات المقارنة فهي ليست في حاجة لمن يعارضها أو يساندها، بل إلى من يتسلق درجات تكاملها، فازدواجية اللغوية التي تبني على أساس اللسانيات المقارنة تخضع أساسا لمعلمة لغوية تعتبر ركيزة لسانية في نظرية الترجمة الانعكاسية التي لا بد أن ترتبط أساسا باللسانيات المقارنة لا انفصام لها، هذه العلاقة تبقى بمثابة العروة الوثقى وصمام الأمان بالنسبة لمستخدمي نظرية الترجمة الانعكاسية والتي تستلزم شرطا أساسيا وجوهريا يتمثل في إجراء دراسة مقارنة انعكاسية، على أساس لغتين تجمعهما عناصر التكافؤ في جميع المستويات اللغوية.⁴

اللغة ثلاثية الأبعاد:

إن ازدواجية اللغة التي تنبني على أساس اللسانيات المقارنة تخضع تماما للمعلمة اللغوية، وإن كل عنصر لغوي ينتمي للغة بشرية طبيعية ما، ولا بد من امتلاكه لثلاث إحداثيات تشمل المستوى التركيبي والمستوى الانتقائي ومستوى الدلالي، وإن أهم شيء يميز

النص عن غيره من العناصر اللغوية هو معناه الدلالي الثلاثي الأبعاد، وهو ما يطابق تماما رأي تمام حسان⁵ عندما نجده يستخدم مصطلح المعنى الوظيفي والمعنى المعجمي والمعنى المقامي، وهي إسقاطات تقابل الإحداثيات السابقة الذكر، على مستوى المحاور التركيبية والانتقائية الدلالية.

- فالمحور التركيبي يتجلى في تركيب الباحث لمجموعة من المعادلات التركيبية مع رصد التحويلات الضرورية التي ينبغي القيام بها عند المرور من الإحداثية التركيبية للغة الأصل إلى الإحداثية التركيبية للغة الهدف، كأن نقدم الفعل في التركيب العربي مثلا عن الفاعل، وتأخره في اللسان الفرنسي تلك المعادلات ستصبح مع الممارسة الدائمة والمستمرة لنقل عمليات تلقائية لدى المترجم، وانطلاقا من المنطوقة ذات البنية التركيبية البسيطة المكونة من فعل+ فاعل+ مفعول به - الحصول على بنية لا نهاية لها وفق محور أفقي يصطلح عليه البنيويون المحور التركيبي، ويمكن انتقاء كلمات جديدة وفق محور عمودي يسمى المحور الانتقائي وكلا المحورين يؤديان إلى تغيير المعنى الدلالي.

في البناء التركيبي ينبغي التمييز بين العمدة والزوائد، نطلق على العمدة المحور الذي ترتبط به جميع العناصر المكونة للتركيب، أما ما عدا هذه المكونات فيأتي ضمن الزوائد أو الفضلات والتي تشكل في مجموعها الإحداثية الدلالية للنص.

وقد يتجلى المحور الانتقائي بدوره في مجموعة من المعدلات الانتقائية المعجمية، وتجدر الإشارة إلى أن المعادلات المركمة تخضع لتصنيف سيميائي خاص يستمد أسسه النظرية من مفهوم السيميائية الكبيرة الذي طرحه جريماس⁶ ذلك أن اللغة تعتبر بمثابة سيميائية كبيرة تحتوي على عدد كبير من السيميائيات الخاصة وهي قضية أساسية في أي لغة، بل وجوهرية لتنمية الرصيد الثقافي الأزدواجي فالنعت يسبق المنعوت في العربية، بينما قد يتقدم أو يتأخر في الفرنسية حسب المعنى والصفة في اللغة الانجليزية تسبق الموصوف دائما، وإذا كانت الصفة في العربية تابعة للموصوف، كما هو الشأن في الفرنسية، فهي في الانجليزية لا تجمع ولا تؤنث ولا تثنى.

بينما الأفعال قد تكون لازمة في اللغة الأصل ومتعدية في اللغة الهدف، وذلك يعود أساسا إلى مدى فهم حركة الفعل في الجملة على حد سواء. ويستحيل تحقيق هذا الهدف من لغة لأخرى بدون معرفة الفعل وظائفه وتحركاته.

إذا اعتبرنا نظام سيميائية الجذور ودوره في الربط المنطقي في النصوص العربية سندرك حقا أهمية اللسانيات المقارنة وإن نظام الجذور في اللغة العربية يتميز بأشياء عظيمة مقارنة بنظام الجذور في اللغة الفرنسية، ذلك إن نظام التقاليب الخليلية غائب غيابا تاما في اللغة الفرنسية، وهذه نقطة عظمي تحسب للغة الضاد، إذ يمكن بناء على نظام التقاليب الحصول على كل الجذور الثلاثية المتوقعة، ويمكن حصر عدد هذه الجذور حصرا نهائيا ودقيقا، كما يمكن حصر الجذور التي تم انتقائها من عدة لغات أو حتى اللهجات المحلية لمختلف المجتمعات البشرية.⁷

ولما كانت المجتمعات الإنسانية تستفيد من تجارب بعضها، وتأخذ من ثقافات بعضها، نجد أنفسنا نحن العرب في العصر الحاضر محتاجين إلى أسباب النهوض، وسبل التقدم، ومن أجل بلوغ ذلك لا بد من الاطلاع على علوم ومعارف ونظم ولغات وثقافات تلك الشعوب، وان نترجم تلك المكاسب الجديدة بلغتنا الغنية بصيغها واشتقاقاتها، وان نجعلها عربية اللسان والفكر بعدما كانت أعجمية البيان.⁸

وأما المحور الدلالي فإنه يتجلى في اكتساب المترجم الخبرة التي تتيح له القدرة على إنجاز المعادلات على مستوى المعنى الوظيفي بحيث يستطيع إسناد الوظيفة النحوية المناسبة لكل مكون من مكونات الوحدة التركيبية بشكل ازدواجي، وهذه القدرة هي التي تنمي رصيده في التحليل المنطقي أو ما يصطلح عليه عربيا (بالإعراب الوظيفي) وكذلك على مستوى المعنى المعجمي بحيث يصبح قادرا على تحديد مرادفات المورفيمات أو التعابير المختلفة على مستوى المعنى المقامي، بحيث يصبح قادرا على التمييز في جبهة المقامات وعلى استعمال الرصيد المعجمي المناسب لكل مقام ...

وقد نستعمل الانتقاء الدلالي بالمعنى الموجود في الدراسات الألسنية الحديثة، ويعتمد في هذا المعنى على عمل ينبنى على أفكار معدلة موجودة في تصور المفكر، ومفاد هذا التصور أن الانتقاء المقولي حشوي ويمكن استخلاصه من الانتقاء الدلالي الذي يتحقق في صورة ما، قد يسميه بعض الباحثين في مجال اللغوي بالتمثيل البنيوي الاعتيادي.⁹

كما يمكن الوقوف على أبعاد أخرى خارج لغوية يتحكم فيها المتكلم لنقل أبعادا تداولية كالموقع البلاغي مثلا ومن هنا يمكن التمييز بين التداول اللغوي أو ما يسمى بالتداولية وما يطلق عليه باستعمال اللغة، فالبعد البلاغي يتحدد نتيجة ما ينتجه المتكلم حسب الميول والأهداف المتوخاة وذلك راجع إلى مجموعة من الكفاءات والقدرات اللغوية

والموسوعية الثقافية التي ينبغي أن يتمتع به المنتج، فهو قادر مثلا أن يجعل من كلامه تهديدا أو مدحا أو شعرا أو إغراء ويضفي عليه نوعا من الأسلوب الموسيقي لداع بلاغي أو تداولي معين.¹⁰

الازدواجية اللسانية:

تبنى الدراسات النظرية الانعكاسية أساسا على قاعدة لغتين متكافئتين نسبيا، فلا يمكن أن تقام ازدواجية لغوية على قاعدة لغة ولهجة متفرعة كونهما متفاوتتان من حيث المخزون اللغوي الانعكاسي تفاوتنا بينا وواضحا، وهو ما قد يؤثر سلبا في الإحداثيات الثلاثية الأبعاد. فمن الصعب التحدث عن ازدواجية لغوية انطلاقا منقاعدة لغوية غير متكافئة وعليه تكون الصيغة المعبرة عن معيار الازدواجية غير كاملة نظرا للتفاوت الموجود بين اللغتين في الجانب الانعكاسي.

وتتشكل الثنائية اللغوية من لغة قابلة للازدواجية اللغوية وأخرى غير قابلة لذلك نظرا لرصيدا اللغوي الانعكاسي المتواضع أو المنعدم، وعليه فالمكون من لغة كالعربية ولهجة محلية هو ثنائية لغوية، وليس ازدواجية لغوية لعدم توفر مبدأ التكافؤات أو المعدلات.¹¹ وبذلك يتضح الفرق بين الازدواجية اللغوية باعتبارها أشمل وأعم وأعظم والثنائية اللغوية التي يطبعها عدم توازن المكونين اللغويين فيها لعدم وجود الانسجام في الأبعاد الثلاثية التركيب والانتقاء والدلالة ...

وانطلاقا من الرؤى الفكرية اللسانية التي تعلقها على الدراسات الانعكاسية بالمعلمة اللغوية كأداة مقارنة لثقافتين مختلفتين من حيث الأصل والهوية نضع منظومة ثقافية في مرآة منظومة أخرى ليحدث التفاعل الإيجابي وتتكامل المنظومتين ليتم التواصل وتنتشر المعارف والعلوم.¹²

فإن كانت اللغة الفرنسية مثلا كلغة ثانية مبرمجة في المنظومة التربوية في كافة البلدان التابعة للفرنكوفونية الناطقة بالفرنسية تحتل مكانة متميزة جدا إن لم نقل مقدمة ومفضلة على لغة الأصل غير أن لغات هذه الشعوب مغيبة تماما في النظام التعليمي الفرنسي، وما يهمننا من هذه القضية الموقف السلبي الذي تقفه فرنسا من الازدواجية اللغوية ودعوتها إلى أحادية لغوية على الرغم أن اللغة الفرنسية قطعت أشواطاً جد متقدمة في علوم اللغة بفضل علمائها ومفكرها، لكن الموقف العدائي للازدواجية اللغوية فقد نظر إليه جورج موان عالم اللسانيات منذ وقت غير يسير في كتابه "المشاكل النظرية للترجمة" صعوبة

التحدث عن ازدواجية لغوية بل استحالتها في اغلب الاحيان.¹³ غير أن التاريخ السياسي للشعوب قد أثبت أن جميع النماذج الأحادية على اختلافها وتشعبها قد لا تكتب لها الديمومة والاستمرارية، غير أن الفكر الغربي نجده منحازا دوما لفكرة إيديولوجية معينة فاللغات البشرية لا بد أن تتفاعل وتفعّل تأخذ وتعطي.

أما الفكر العربي في مجال الدراسات اللسانية المعاصرة الخاصة باللغة العربية لم يعرف بعد الانطلاقة الحقيقية التي تعيده إلى مكانتها الأصلية حين قاد العالم إلى أن وصل لما وصل إليه، وهنا مكمن الصراع النظيف بين اللغات.

اللسانيات المقارنة والترجمة الانعكاسية :

لقد بات من المسلم به أن الدراسات اللسانية قد حظيت باهتمام خاص في الدراسات اللغويات الحديثة عندما تناولت الخصائص الجزئية والكلية في الحياة اللغوية ويمكن تصنيف مستويات الدراسة اللغوية وفق مجالات عدة باعتبار اللغة قدرة واللغة بنية واللغة تراث حضاري وهي كلام في صلتها بالمقام التداولي.

فطبيعة النظرية اللغوية تتحدد وفق هذه العلاقات الهرمية القائمة بين مستويات اللغة، ولدى يرى بعض الباحثين في مجال علم اللغة الحديث أن وصف اللغة الواحدة والنظر في خصائصها ومميزاتها ومعالجة هذه الخصائص نظرا وتطبيقا يقتضي المقارنة مع خصائص اللغة الأخرى، ذلك أن بعض المفارقات تظهر في فكرة اللغة ذاتها، وقد أكدت الدراسات الحديثة أن المنهج المقارن في البحث اللساني لم يعد سلاليا يرتبط بين لغات تنتمي إلى نفس الفصائل أو الأسر اللغوية التقليدية، بل اقترن المنهج المقارن الجديد بمنهج مبدأ تكامل المعارف وتداخلها.¹⁴

فالحديث عن الأهمية القصوى التي تكتسبها اللسانيات المقارنة باعتبارها أساسا للازدواجية يفتح قوسا للإشارة إلى بعض الاختلافات الاصطلاحية التي تظهر هنا وهناك عند بعض الباحثين وهو اختلاف اصطلاحي، وكذلك عن الترجمة الانعكاسية باعتبارها نتاجا لأعلى درجات الازدواجية وكلها أمور بالغة الأهمية بالنسبة إلى المترجم وبهذا قد تكون وضعية الترجمة رهينة بيد اللسانيات المقارنة، وهو إجراء يساندته الكثير من علماء اللغة نذكر منهم الأستاذ الفاسي الفهري، عند إقراره بالأهمية القصوى لمنهج المقارنة كما يطلق عليه في كتابه: المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي.¹⁵

ينبغي إذن أن تنصب الجهود حول تنمية اللغة داخليا لتأهيلها خارجيا، وهذا هو هدف الترجمة الانعكاسية ذلك أن هذه الأخيرة تركز على قاعدة لغتين لهما رصيد لغوي انعكاسي متباين، وما تباين من هذا الرصيد في لغة أو أخرى، يتم تنميته في إطار الترجمة الانعكاسية ليقع التكافؤ والتوازن والتعادل الذي هو مدخل لترجمة منظمة.¹⁶ يمكننا تحديد مجالات الدراسات اللغوية المقارنة في الجوانب التالية:

الجانب الصوتي ويهتم بالناحية الصوتية الموجودة في اللغات المنتمية إلى أسرة واحدة قصد التوصل إلى قواعد مطردة تفسر التغيرات الصوتية التي طرأت على مدى الزمن، فانقسمت اللغة إلى الواحدة إلى لهجات، قد نجد بعض الأصوات مستمرة دون تغير في كل لغات الأسرة الواحدة، فجميع اللغات السامية مثلا بها صوت الراء بدون تغير، بينما هناك أصوات خضعت لأصوات بعيدة المدى منها صوت الضاد الذي اختفى من جميع اللغات السامية باستثناء العربية.

البنية : تهتم الدراسات المقارنة في كل ما يتعلق بالأوزان والسوابق واللاحق ووظائفها المختلفة فدراسة الضمائر وأبنية الأفعال والمشتقات والمصادر في اللغات السامية تدخل في علم الصرف المقارن لأنها في مجال بنية الكلمة، مثل ذلك في بناء الجملة، فدراسة الجملة الخبرية في اللغات السامية فعلية كانت أو اسمية وجميع القضايا المتعلقة ببناء الجملة كالاستفهام والاستثناء والمطابقة والعدد والمعدود.

. الجانب الدلالي: تهتم الدراسة المقارنة بكل ما يتعلق بتاريخ الكلمات وتأصيلها، كالبحث في طبيعة الكلمات في اللغات المشتركة وما يطرأ عليها من تغير دلالي، وقد كان أهم بحث في علم الدلالة هو تأصيل المواد المعجمية العربية بردها إلى أصولها السامية إن وجدت، وهذا الضرب من البحث يعد من الإضافات المهمة.¹⁷

وبالرغم ما حققته الدراسات المقارنة خلال القرن التاسع عشر فما تزال هناك جهود ضخمة يمكن أن تبدل حتى بالنسبة لتلك اللغات التي لاقت اهتماما كبيرا، فلا يمكن بأي حال من الأحوال فصل الدراسات المقارنة عن الدراسات التاريخية أو الدراسات الوصفية إذا كانت الدراسات اللغوية تتطلب القيام بدراسة وصفية مستقلة، لكل لغة تقارن بلغة أخرى، ومعلوم أن الدراسة المقارنة هي شكل من أشكال الدراسة التاريخية لأن تشعب اللغة الأم أو الأصل إلى لغات إنما هو تطور تاريخي.¹⁸

فعلم اللغة المقارن يهتم بدراسة اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة، ويهتم في المقام الأول باستخدام القدم في هذه اللغات للوصول إلى اللغة التي خرجت عنها كل هذه اللغات، بالإضافة إلى ذلك فإن علم اللغة المقارن ذو هدف تاريخي يحاول من خلال الكشف عن جوانب من الماضي البعيد.

وغير بعيد عن مصطلح المقارنة في اللغة هناك مصطلح المقابلة أيضا يختص بدراسة اللغة وموضوعه المقابلة بين لغتين اثنتين أو لهجتين اثنتين أو لهجة ولغة، وهدفه هو إثبات الفروق الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين المستويين، وأن الدراسة التقابلية لا شأن لها بالاهتمامات التاريخية لأنها ذات هدف تطبيقي في مجال تعليم اللغات.¹⁹

ومن أجل التغلب على الصعوبات في تعليمية اللغات نشأت الدراسة اللغوية التقابلية قصد تعلم اللغات الأجنبية لغرض تذليل الصعوبات التي تواجه متعلمي أحد النظامين اللغويين والتي تنجم عن الفروق بينهما، فإذا أراد أبناء اللغة الفرنسية مثلا تعلم اللغة العربية فالصعوبات التي تواجههم ترجع في المقام الأول إلى اختلاف اللغة الفرنسية عن اللغة التي يريدون تعلمها وهي العربية، ولذا ينبغي البحث في أوجه الاختلاف بين هاتين اللغتين لتعرف الصعوبات الناجمة بقصد تدليلها وتيسيرها للمتعلمين ولا تقف الدراسة عند الفوارق اللغوية فقط بل يمكن أيضا أن تكون بين لهجة محلية واللغة الفصحى المنشودة فالصعوبات الموضوعية التي تواجه أبناء تلك اللهجة في محاولاتهم اكتساب اللغة الفصحى تنجم في المقام الأول عن الفروق اللغوية بين هذه اللهجة وتلك اللغة.

وقد تأكد بصورة لا تقبل الجدل أن علم اللغة التقابلي قد وصل إلى نتائج هامة يستفيد منها متعلمي اللغات الأجنبية بالدرجة الأولى والحقل الترجمي فلا ترجمة انعكاسية دون لسانيات مقارنة.

الإحالات :

1- Sémiotique Dictionnaire raisonné du Langage – Greimas

2- الترجمة أصولها ومبادئها وتطبيقاتها د/ عبد العليم السيد منسي ص14.

3- كتاب الحيوان - لأبي عمرو للجاحظ ص 443.

4 - في التربية اللغوية وأنحاء التواصل د/ احمد الوالي العلمي ص37- 39.

5. اللغة العربية معناها ومبناها تد/ تمام حسان ص 341.

6- Jean dubois et al Dictionnaire - de linguistiques p155.

- 7- الترجمة أصولها ومبادئها وتطبيقاتها د/ عبد العليم السيد منسي ص15.
- 8- مناهج اللغة والأدب/ عبد الكريم اليافي ص13.
- 9- المرجع السابق ص 59.
- 10- تركيب اللغة العربية – مقارنة نظرية جديدة – دا محمد رجال ص68.
- 11- المرجع السابق ص 51.
- 12- السيميائيات السردية – د/ سعيد بتركاد ص56.
- 13- Problemes Theoriques de traduction .Paris Gallimard. 1963G.
Mounin.
- 14- اللسانيات واللغة العربية – د/ الفاسي الفهري ص 114.
- 15- المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي – د/ الفاسي الفهري ص11.
16. المرجع نفسه ص157.
- 17- مدخل إلى علم اللغة/ محمود فهي حجازي ص 21.
18. المدخل الى علم اللغة/ محمد حسن عبد العزيز ص 154.
- 19 مدخل الى علم اللغة/ فهمي حجازي ص 204.